

ما أحلى الرجوع اليه

وصلتنى رسائل عديدة من مكان العمل و المرضى فى أبوظبى يستفسرون لماذا تأخرت و قد اخذت اجازة طارئة لمدة ثلاثة ايام و مضت ثلاثة اسابيع وصدقونى أننى لا املك اجابة لكل هذه الرسائل لماذا بقيت ؟ و متى اعود؟ و قد يعجب القارئ و يتذمر المريض و تتلملم الاداره ولكننى لا املك اجابة رغم اننى استلمت تاشيرة الخروج.

و جلست امس فى محاولة للرد برسالة ترضى كل الاطراف فلم يحالفنى التوفيق و تأملت فى طبيعة عملى فى خصائص سيكلوجية الحداد... باختصار شديد تميز بين شريحتين من المحزونين ..فئة الصغار و الذين يتميزون بسرعة الاثارة و شدة الاستجابة للصدمة بالعويل و الصراخ و لطم الخدود و شق الجيوب و دعوى الجاهلية فيصلون مرحلة التفريغ العقلى و قمة الترويح النفسى فيتفاعلون مع الحزن و المسرة على طرفى نقيض فئة الكبار الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله و انا اليه راجعون يتمثلون قول الرسول الكريم عند وفاة ابنه ابراهيم (تدمع العين و يحزن القلب و لا نقول الا ما يرضى الرب و انا لفراقك لمحزونون يا ابراهيم) وهؤلاء يمتصون الصدمة من الخارج و يتصدعون من الداخل و يتقبلون وفود المعزين بقلوب ثابتة و عيون ثاقبة و عندما يسكت اللسان تتكلم الجوارح فتتقرح المعدة و يتشنج القولون و ينفطر القلب و يبدأ الحزن لاحقا فى داء عضال او صعب المأل

و شأنى شان هؤلاء يجدون فى طول فترة الحداد الصامت و مؤاساة الجميع فرج الوجيع فى امتصاص حدة الحزن فى المأتم و الذى قد يمتد حتى بقية العمر فيغسلون ادران الحزن فى ملاقات الاصدقاء و مناجاة الاقرباء و سمر الاحياء من جيل الفقيده و لعننى وجدت فى دفء لقاءاتى الاذاعية و ظل حواراتى الصحفيه و تنوع مقابلاتى التلفزيونيه و التى تكرر العزاء صباح مساء و تجدد الذكرى بالكلمة المعبره و المنشئات المؤثره و تجسد صورة الفقيده بالصوت و الصورة فيتجمع شتات الماضى و حزن الحاضر و امل المستقبل فى جيل واعد يرعى التراث و ولد صالح يصون الميراث... لقد ظلت كل هذه المنابر المرئية و المسموعة و المقرؤة لا تنقطع عن حلو الحديث عنه و احياء جذوة محبته فى قلوب الناس من كبار المسئولين حتى اصغر الواقفين فى حراسة بوابة المنشآت فى أطراف العاصمة.

ومن سيكلوجية الحداد ان حظيت بلقاء اكبر عدد من معاصريه والذين فارقتهم منذ عدة عقود فاحيا بعض ما مات داخلى فامتلاً الفراغ النفسى الذى تركه عثمان حسين فى حياتى خاصة فى اجازاتى القصيرة والتي اصبحت فى غيابه اطول من ليل النكبة.. ولعل وجودى فى حضان المكان الذى دفن فيه ما عاد بى و حرك فى اعماقى شجن المغترب المسكون فى اعماقه بشعور التوجس من وحشة الموت فى الغربية فيشعر بالامان فى دفء احضان الوطن و هذا الشعور الداخلى بالطمأنينة لا ينبع الا من دفء العلاقات و طيب الملاقاة مع من تحب!

ولعلنى فى هذه العجالة اعتذر- ضمنا فيما أقول- للمرضى الذين قطعنا لا تسعدهم رؤيتى منقبض الاسارير معك المزاج و عهدهم بى أسقيهم من كاس يفيض رقة و عذوبة و فاقد الشئ لا يعطيه..ومن حقهم على مرة اخرى الا اعود الا وقد هدا الزلزال و سكت الالم و اندمل الجرح و انطفأ لهب الحزن المشتعل بداخلى و خفت مرارة الاسى فى غصنة حلقى و غسلت احزاني فى (محراب النيل) الذى تغنى به عثمان و ذرفت دموعى فى تراب (الأرض الطيبة) التى شدا بجمالها صباح مساء..حتى اعود اليهم و قد استعدت عافية الحس و شفافية روح المحب للحبيب و رقة المعالج بكل الحواس وهذا عهدهم بى و قسمى لهم و هو قسم لو تعلمون عظيم و حتى ذلك الموعد القريب فى أبوظبى و أنا فى قلب السودان النابض بالحب و الحنان أقول لهم جميعا ..ما أحلى الرجوع اليه!!